Lisanî İlimler Dergisi
Journal of Linguistic Studies
Aralık / December 2024, 2 (2): 499-511

اللغة بين الإنسان والحيوان

The Language Between Human and Animal

Doç. Dr. Ahmed ALDYAB

Ankara Yıldırım Beyazıt Üniversitesi, İnsan ve Toplum Bilimleri Fakültesi, Doğu Dilleri ve Edebiyatları, Mütercim Tercümanlık (Arapça)
Ankara Yıldırım Beyazıt University, Faculty of Humanities and Social Sciences, The Department of Eastern Languages and Literatures, Translation and Interpretation (Arabic)
ahmed.aldyab@aybu.edu.tr
ORCID: 0000-0002-9497-9197

Makale Bilgisi / *Article Information*

Makale Türü / *Article Types* : Araştırma Makalesi / *Research Article*
Geliş Tarihi / *Received* : 15.09.2024
Kabul Tarihi / *Accepted* : 10.10.2024
Yayın Tarihi / *Published* : 31.12.2024
Yayın Sezonu / *Pub Date Season* : Aralık / *December*
Cilt / *Volume*: 2 • **Sayı / *Issue*:** 2 • **Sayfa / *Pages*:** 499-511

Atıf / *Cite as*

ALDYAB, A. (2024). The Language Between Human and Animal, Lisânî İlimler Dergisi, 2(2), 499-511.

Doi: 10.5281/zenodo.14478756

İntihal / *Plagiarism*

Bu makale, en az iki hakem tarafından incelendi ve intihal içermediği teyit edildi.
This article has been reviewed by at least two referees and scanned via a plagiarism software.

Yayın Hakkı / *Copyright*©

LİDER, Lisanî İlimler Dergisi, uluslararası, bilimsel ve hakemli bir dergidir. Tüm hakları saklıdır.
Journal of Linguistic Studies is an international, scientific and peer-reviewed journal. All rights reserved.

Dergimizde yayımlanan makaleler,
Creative Commons Atıf 4.0 Uluslararası (CC BY 4.0) ile lisanslanmıştır.

The articles published in our journal are licensed under
Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0).

الملخص:
لا شك أن اللغة أكبر نعمة يمتلكها الإنسان، فهي المحرك للإنسان ونشاطاته وفعالياته وأمور حياته كلها، واللغة هي وسيلة التواصل بين الناس وربما بين الحيوانات أيضاً، لكننا لانستطيع أن نفهم بشكل كامل اللغة بين الحيوانات لأن خصائص الطبيعة البشرية مختلفة عن خصائص الطبيعة الحيوانية. واللغة تشكل المجتمع وتكون أمة مستقلة عن الأمم الأخرى، فالأمة عندما تمتلك لغة خاصة بها فهي تشكل هوية هذه الأمة، وكما نعرف أن المجتمعات وُجِدتْ منذ القديم واستخدمت اللغة للتواصل فيما بينهم، ومن هنا كان لابد أن نبحث في أصل نشأة اللغة ونسأل أنفسنا هل اللغة جاءت من عند الله عز وجل كما هي أي نزلت كقالب ثم استخدمها الإنسان وهي جاهزة أم أن اللغة هي من اختراع وابتكار الإنسان البشري؟ وما هي أهمية اللغة في حياتنا وما هي ماهية اللغة وأصلها؟ وما هي الأفكار التي صاغها علماء اللغة لتقريب مفهوم اللغة للناس؟ وهل يمكن أن نقول إن الحيوانات تستخدم لغة فيما بينها أم هي تستخدم أصوات وإشارات. ومن هنا جاء هذا البحث لتوضيح بعض النقاط والإجابة عن هذه الأسئلة قدر المستطاع، ولا أدعي أنني سأجيب عن هذه الأسئلة بشكل كاف وربما سيكون دور كبير للباحثين من بعدي لتوضيح النقاط الغامضة الأخرى المتبقية.
الكلمات المفتاحية: اللغة، الأصوات، التواصل، نشأة اللغة، النظرية.

Abstract: There is no doubt that language is one of the greatest blessings bestowed upon humans. It is also the foundation of human vitality, actions, and every kind of aspects of life. Language serves as a means of communication between humans and maybe also between animals. However, it is impossible for us to fully comprehend the language of animals, because the nature of humans is different from nature of animals. Language shapes society and forms a different nation, separate from others. When a nation possesses its own unique language, that language becomes an integral part of its identity. As we know, societies have existed since ancient times, and language has been the primary tool for communication among humans. That's why, we must delve into the origin of language and ask ourselves the following questions: "Did language come directly from God as it is, or was it sent down as a framework and then developed by humans? Or is language a human invention or creation? What is the significance of language in our lives? What is language, and what is its origin? What theories have linguists developed to explain the concept of language to humans? Is it possible to say that animals use a language among themselves, or do they merely rely on sounds and signals for communication?" This study aims to clarify certain points and provide answers to these questions as much as possible. However, I do not claim to fully answer all these questions. Rather, I hope that this study will play a crucial role in addressing the remaining ambiguities in the future by other researchers.

Keywords: Language, sounds, communication, origin of language, theory.

مقدمة:

لايشك اثنان أن من أعقد المواضيع التي نوقشت قديماً والتي تناقش حديثاً هو موضوع اللغة، فمنذ القديم خاض الفلاسفة واللسانيون وفقهاء اللغة في طبيعة اللغة وماهيتها ونشأتها، وكل منهم قد أدلى بحججه الموافقة لآرائه الفلسفية واللغوية ولمعتقده الديني، فخاضوا وغاصوا إلى الأعماق، لكن دون أن تستند حججهم إلى دليل قطعي أو رهان ثابت، فحتى يومنا هذا نجد من يعترض على الآراء القديمة ويصفها بالعقيمة وغير المفيدة وحتى الآآن نسمع بتفسير جديد وبنظرية مبتكرة حول نشأة اللغة وطبيعتها وماهيتها، لكن تبقى هذه الدراسات والبحوث برأيي غير عقيمة كما وصفها بعض المحدثين لأن علماء اللغة والفلاسفة حاولوا أن يقربوا هذا الموضوع ويفتحوا الباب للآخرين، فكل موضوع إن لم تصوب إليه سهام البحث يبقى ميتاً لاحراك له وكما هو معروف أن كل شيء قبل المحاولة صعب. إن الحاجات البيولوجية المتقاطعة بين الحيوان والإنسان تجعلهما إلى حاجة للاتصال بالآخرين، وإن هذا الاتصال يختلف من الإنسان إلى الحيوان، فالاتصال عند الإنسان يقوم بواسطة اللغة التي تعد خاصة من خصائص الطبيعة الإنسانية، أما عند الحيوان فالاتصال يقوم على أصوات وربما إشارات لا تعدو أن تكون أصواتاً بسيطة غير مركبة. إن المدارس اللغوية المعاصرة تؤكد حقيقة أن اللغة هي لغة خاصة بالإنسان لأنها تحمل تركيباً يعصى على الحيوان أن يتقنه بسبب الطبيعية المختلفة بين الإنسان والحيوان ناهيك عن أن اللغة تحمل وعياً وهذا ما لانجده عند الحيوان، وهذا الوعي يجعل الطبيعة الإنسانية وحدها يحمل اللغة وتتقلب في نشاطاتها المختلفة وفعالياتها المتنوعة.

إن اللغة هي انسجام ونسق من الأصوات والإشارات والعلامات يستخدمها الناس للتعبير عن حاجاتهم وأغراضهم ولإخراج ما يلوج في داخلهم من معان وأفكار ومشاعر وأحاسيس. وعلى الرغم من أن بعض اللسانيين ذكر أن اللغة تتقاطع مع الإنسان والحيوان، إلا أن أكثر علماء اللغة أكد أن اللغة خاصية من خصائص الإنسان وهي التي تميزه عن الحيوان بشكل أساسي وموضوعي.

تعريف اللغة:

في البداية لن أقيد تعريف اللغة بجنسية ما وفي نفس الوقت لن اقيده بزمن أو عصر بل ستشمل هذه التعريفات على أقوال مختلفة تفيد في إصابة التعريف من زوايا مختلفة. وأبدأ أولاً مع ابن

جني يقول: " اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (ابن جني، 1956، 331). يلاحظ من ههذا التعريف أنه ربط اللغة بأحوال الإنسان، فاللغة هي امتداد لأحواله وحاجاته.

ومن ناحية أخرى عرفها ابن خلدون بقوله: "من المعلوم أن اللغة في العرف هي إشارة المتحدث عن غرضه وتلك الإشارة ما هي إلا عمل لساني متكون عن قصد وإفادة المتكلم، فيجب أن تصبح ملكة متجذرة في العضو المكافئ لها وهو عضو اللسان" (ابن خلدون، 1967، 156). فاللغة برأيه ليست أصواتاً وألفاظاً فحسب ولكنها قبل كل شيء طريقة تفكير تلازم الفرد والمجتمع في منطقه وتاريخه وأحاسيسه ووطنه، فاللغة هي أداة التفكير والتفاهم بين الأفراد.

وفي مقالة بعنوان اللغة والأمة نجد قول مصطفى الرافعي في اللغة حيث يعرفها "بأنها هي التي تشكل حاضر الأمة ووجودها بكامل أفكارها ومعانيها والحقائق التي تختزن في نفوسها فتكون وجوداً وحاضراً متميزاً متسماً بخصائصه، فهي تشكل وطنية الفكر وقومية الأمة ومن خلالها تتوحد الأمة في أشكال التفكير وأساليب اقتباس المعنى من المواد والمواضيع" (مراد، 1986، 24). فاللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والمعاني وهي أداة نقل وتسجيل تساعد على نمو الفكر ورقي الحياة باستمرار. ويعرف الفيلسوف الألماني فحته اللغة بقوله "إن لغة أمة من الأمم هي قوتها الطبيعية وعلينا أن نستنفد كل ما في هذه اللغة من إمكانيات وملكات وقوة طبيعية للتعبير عن نفسها مع تنسيق للألفاظ واختيار للمعاني بحيث تصبح كلاً متناسقاً منسجماً ودلالته واضحة تامة" (مراد،1986، 25)، فاللغة هي وجود الأمة وحاضرها. ويعرف فندريس اللغة بقوله: " اللغة من ناحية تعد واحدة من أعجب المبتكرات التي أظهرها التطور الإنساني فيجب الوقوف عندها، ومن هنا كانت العلاقة بين اللغة من حيث هي وسيلة التفكير وهي أساس العقل وهي التي تحكمت بالعقل من حيث تنظيم الوسائل والمعطيات والإنسان تنبه لذلك فقام باكتشاف هذا المخلوق العجيب" (وليد، 1986، 25).

وللدكتور صبحي الصالح تعريف ينحو بها إلى الجانب الاجتماعي يقول: "اللغة هي واحدة من العناصر العلمية االمستقلة وهي ظاهرة اجتماعية وعنصر حضاري، فهي تقوم بتنظيم ما في العالم من مفاهيم وأشياء من الفوضى والحالة غير المنظمة إلى ترتيب وحالة تميل إلى الانتظام، فهي تشمل العلوم والاختراعات والأشياء المقروءة والمعاني الجليلة التي توفر للحياة بألوانها واشتقاقاتها مفاهيم وتعريفات جميلة" (الصالح، 1983، 350).

ويدلو مخائيل نعيمة برأيه في تعريف اللغة قائلاً: " إن اللغة هي مستودع من التراكيب والرموز نشير بها إلى عواطفنا وأفكارنا وينبغي لنا أن نحتفظ بهذه الإشارات والرموز إذا كنا غير قادرين على إبدالها برموز وإشارات أخرى و وبرموز أدق منها، ومهما كبرت اللغة وامتدت واتسع مجالها وتعدى نفوذها فهي لا يمكن أن تتعدى وإلا قسماً صغيراً من الإنسانية، واللغة مهما غيرت من حالها ومكانها ورفعتها فهي لاتتجاوز أن تكون إلا لباساً لأفكارنا وهي في هذه الحال تأخذ لنفسها لباساً جميلاً يتزين به الفكر ويكون معبراً عنها" (مراد، 1986، 28).

ومن علماء اللغة الغربيين الذين عرفوا اللغة عالم اللغة سابير وهو كما نعرف واحد من أهم رواد الفكر الغربي يقول: " اللغة هي المحرك الذي يجعل المجتمعات تتقدم وتتطور وتتصرف وتفكر، فهذه المجتمعات لايمكن أن ترى العالم إلا بواسطة لغتها" (خرما،1979، 221).

نشأة اللغة:

كما يبدو من تعاريف العلماء للغة أنهم استندوا في تعريفهم للغة إلى عناصر ومعتقدات وأفكار متنوعة ومختلفة وقد تباينت دوافعهم وفق تكوينهم الثقافي والعقائدي، فكما لاحظنا أن منهم من وجد علاقة بين اللغة والفكر ومنهم من ربط اللغة بالمجتمع ومنهم من جعل اللغة مستودع للإنسان بكل ما يحمله من عواطف وشعور وأفكار، فهي لباس الفكر وهي المعبر عن الإنسانية جمعاء. ولكي نعرف على نشأة اللغة لابد لنا أن ننظر إلى المنطلق الذي انطلق منه هؤلاء العلماء في نظرتهم للغة وهنا يجب أن ننتطرق إلى أهم النظريات التي فسرت نشوء اللغة وقيامها، وهذه النظريات على الرغم من تباينها واختلافها إلا أنها وحدت الفكر الإنساني إلى أهمية اللغة ودورها في حياتنا، فمن هذه النظريات:

نظرية التوقيف والأصل الإلهي:

في الحقيقة يعود مصدر هذه النظرية إلى بعض المفسرين الذين فسروا قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها)، يقول مجاهد في تفسيره: "أي علمه اسم كل شيء" (مجاهد، 1396، 382). وتناقل هذا الراي بعض اللغويين أمثال أحمد بن فارس فقال بتوقيف اللغة أي أن لغة العرب توقيف من عند الله تعالى (أحمد، 1977،253) واحتج بالآية السابقة فاللغة كما يقول ابن فارس أصلها إلهي وقد تناقلها الأنبياء وأوصلوها إلينا عن طريق التتابع بدءاً من سيدنا آدم حتى اكتملت

بظهور الإسلام، فاللغة برأيه تُعلّمتْ من نبي إلى نبي فالأنبياء من اللغة ما تعلموا حتى وصل الأمر إلى سيدنا محمد صلوات الله عليه (فارس، 977، 253).

هذه النظرية تمتد بجذورها إلى بعض اليونانيين وعلى راسهم أفلاطون حيث رأى أن الناس عاجزون عن وضع اللغة بأنفسهم فأرجعها إلى السماء وفي ذلك تحقيقاً لآرائه المثالية التي تعد كل شيء مصدره السماء، ولهذا رأى أن اللغة توقيفية لا يستطيع الإنسان إبداعها ولا تقوى إمكاناته على صنعها. هذه النظرية كان لها مناصرون كثر حت من علماء اليهود أنفسهم فقد أرجعوا مصدر اللغة إلى سيدنا آدم عندما أحضر له الله عز وجل كل الكائنات من حيوان ونبات وجماد فسماها آدم باسمائها وهكذا كان، فد جاء في سفر التكوين بما معناه: "فجُلِبَ إلى آدم ليشاهد ويرى ماذا يطلق عليها من أسماء وكل ما سمه بها آدم من نفس حية فهو كان من مسمياتها، فألصق وسمى آدم كل الدواب والطيور والبهائم وكل الحيوانات البرية" (سفر التكوين، 1948، 12).

نظرية الوضع والاصطلاح:

تستند هذه النظرية في أساسها إلى أأن الإنسان هو واضع اللغة وهو مخترعها وموجدها، فالإنيان منذ القديم تواضع على أن يسمي الأشياء بأسمائها وبعد ذلك تناقلتْ هذه الأسماء الأجيال جيلاً بعد جيل ومن ثم تطورت الحروف والأفعال حتى اكتملت اللغة، وربما كان لابن جني رأي في أساس هذه النظرية يقول ابن جني: "ثم لنعد فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً إذا عرف به فسماه ليمتاز من غيره" (ابن جني، 1956، 50)، وقد حاول ابن جني أن يعطي تفسيراً جديداً لقوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) فقال: "ويجوز أن يكون تأويله أقدر آدم على ن واضع عليها" (ابن جني، 1956، 52). وتبقى هذه النظرية كسابقتها ضعيفة الأساس واهية الخيوط، فإذا كان الإنسان قد وضع اللغة أولاً فمن أين جاء باللغة قبل أن يضع المسميات وكيف وضعها ومتى؟، هذه الأسئلة قد وجهت إلى هذه النظرية وطبعاً لا يوجد جواب شافٍ ووافٍ ولذلك بقيت هذه النظرية تدور في فلك الخيال والتخمين.

نظرية التنفيس الانفعالي:

مضمون هذه النظرية يتمثل في أن اللغة الإنسانية عبارة عن امتداد لما يعتلج داخل النفس البشرية من عواطف وأحزان وانفعالات ومشاعر وأحاسيس، فكلما انفعلت نفس الإنسان بأمر من الأمور خرجت هذه الانفعالات وهذه الأحاسيس على شكل لغة، وهذا ما عبر عنه فندريس عندما صاغ كلامه من الأساس فقال " لقد اعتقد هؤلاء أن فكر وذهنه الإنسان كانا غير قادرين على فعل الكلمات وصنعها فقام بالتنفيس عن داخله بالعويل والصراخ ومن التنفيس عن الشعور المدفون في داخله المختلط بحركة وغناء مرافق للفعل والعمل ومن هنا ظهرت الكلمات الأولى وبعد ذلك تحولت مجموعة هذه الكلمات إلى إشارات ورموز تشير وتعبر عما يصطحب العاطفة والشعور من أفكار وانتقلت هذه الرموز والإشارات من جيل إلى جيل وهكذا ظهرت اللغة" (فندريس، 1950، 13).

يبدو ن هذه النظرية قامت على نفس الأساس الذي فسرت به نشوء اللغة ألا وهو الأساس الانفعالي ولذلك لم تصمد أمام سهام النقد الموجهة إليها وإحدى هذه الانتقادات أنه يوجد كلمات كثيرة ليس لها علاقة بالنفس ولا بالانفعالات النفسية.

نظرية الملاحظة والمحاكاة العملية:

يعد العالم الألماني غيغر صاحب هذه النظرية، وملخصها أن الفرد يمكن أن يلاحظ الشخص الآخر وهو يقوم بالعمل ويتحرك ويمكن أن يعبر عن تعبه وجهده في أثناء هذا الجهد بإشارات وحركات إرادية وربما غير إرادية تقّلها وتؤديها أعضاؤه إما بمشاعر وانفعالات تشير بها تعابير وجهه أو بأصوات تخرج من فمه مصاحبة لأعماله فتثبت في ذهنه الأصوات مقرونة بإشاراتها ويزيدها التكرار المستمر رسوخاً في النفس والذهن ثم تتحول إلى عادات مألوفة وهكذا يحاكي المشاهد ما رآه من أخيه ويقلده بنفس الأصوات والحركات (رمضان، 1985، 113). ولو انتقلنا إلى اللغة العربية لنرى مدى تحقق هذه النظرية في لغتنا لوجدنا أن بعض الآلات مثل المطرقة فهي للطرق، والمنشار للنشر والمجرفة للجرف والحصادة للحصد، وعليه فإن هذه النظرية ضيقة الأفق والمساحة فهي تصلح لنسبة قليلة جداً من الكلمات، أما الكلمات ذان المفاهيم

المجردة فلا تمد لها بصلة، وتعد هذه النظرية أيضاً شكلاً من أشكال نظرية محاكاة الأصوات الطبيعية.

نظرية الاستعداد الفطري:

صاحب هذه النظرية ماكس ملرن وملخص هذه النظرية أن الإنسان عنده قابلية فطرية وعفوية لتسمية الأشياء التي يراها دون الحاجة لتدخل أي مصدر آخر، فعنده طاقة مخزنة وكامنة يفيد منها عند الحاجة، والذي حث ملة على صياغة هذه النظرية مارآه من بعض الأطفال أنهم يسمون الأشياء التي لم يتعلموا أسماءها بألفاظ من وحي فطريتهم وعفويتهم فاستنبط من ملاحظته هذه أن الإنسان مزود بتلك القوة التي تنشأ عنها الألفاظ (رمضان، 1985، 118).

في الحقيقة هذه النظرية تضع الناس كلهم في كفه واحدة وتساوي بين غرائزهم وملكاتهم الفطرية ودوافعهم، لأنه إذا تساوت مسميات الأشياء، هذا يعني أنه تتساوى الغرائز والملكات الفطرية عند جميع الناس وهذا غير مقبول بالنسبة للنفس البشرية.

نظرية التطور اللغوي:

من اسم هذه النظرية يعرف المرء أن اللغة لم تكن دفعة واحدة وإنما مرت بمراحل ونشأت وفق تطور معين مر بخمس مراحل وهذه المراحل هي:

مرحلة عفوية الأصوات وفي هذه المرحلة كان الإنسان يُخرج أصواتاً ربما لايكون لها معنى وهذا الأمر شبيه بأصوات المولود الجديد عندما يصدر أصواتاً عند ولادته وهي تكون بشكل عفوي وبسيط.

مرحلة الأصوات التي يصدرها الإنسان بشكل منفعل متلازم بإشارات كان الشخص يرسلها من داخل فمه لتعينه على غشباع رغباته وترجمتها وفي هذه المرحلة تساوي وتعادل المرحلة التي يمر بها الرضيع عندما يقوم بإصدار أصوات في سنته الأولى للتعبير عن خوف ما من أشخاص رآهم أول مرة أو سعادة وفرح من الناس الذين تعود عليهم وألفهم.

مرحلة مقطعية الأصوات، فالإنسان الأول كان يقوم بتكرير الأصوات التي تتألف من مقطع واحد و هذه المرحلة مشابهة لمرحلة الطفل الوليد في بداية سنته الثانية، فالطفل يقوم بتكرار أصوات

بشكل من الأشكال وعلى نحو ما فيقول مثلاً "با با " "ما ما" فيلفظ المقطع الأول ثم يتبعه بالمقطع الثاني وبعد ذلك يستقر هذا الأمر في ذهنه وبعد تكرار هذه المقاطع يوماً بعد يوم تتآلف المقاطع مع بعضها وتصبح كلمات صحيحة.

مرحلة الانتقال من مقاطع الكلمات إلى الكلمات الكاملة والصحيحة، فالإنسان الأول ركّب من هذه المقاطع كلمات تحتوي في داخلها مقاطع كثيرة ومتنوعة وبهذا ازدادت الكلمات وفي نفس الوقت ازدادت المقاطع، وهذه المرحلة مشابهة لمرحلة الطفل في سنته الثانية، ففي هذا العمر يكتمل فمه وعقله ويتجه إلى مرحلة من النمو المستقل.

مرحلة الاكتمال والنضوج: فالكلمات قد نضجت من البساطة إلى مرحلة التعقيد والتركيب وبالتالي الجمل المعقدة نسبياً، وهذا النضوج والاكتمال تم نتيجة لاكتمال عقل الطفل وأقسام جهاز النطق والأعضاء المرافقة لها (عبد التواب، 1985، 121).

هذه النظرية ترى وتربط نشوء اللغة بنشوئها عند الطفل، فاللغة تتكون عند الطفل حسب مراحل معينة، وهذه المراحل يمكن أن نطبقها ونعتبرها مراحل نشوء اللغة بشكل عام.

وربما تكون هذه النظرية أكثر شمولية من سابقاتها وأكثر منطقية لافتراضها افتراضات ربما مقبولة من الناحية العقلية، لكن يبقى أساسها قائم على أصول متخيلة وتصورات ذهنية لا تستند إلى الحقيقة والأسس الثابتة، وأيضاً تقييد نشوء اللغة بهذه المراحل فيه إجحاف واستبداد في نفس الوقت، فكيف نفسر أن بعض الناس في مراحلهم العمرية المبكرة يختلفون في إخراج الكلام، فنحن نجد أن الكلام يحتوي على كلمات وتراكيب مجردة ومفاهيم ذهنية، وأحياناً نجد أن الكلام في المراحل العمرية المبكرة يكون بسيطاً وكلمات مادية لاتحوي أي تعقيد وتركيب بين الكلمات، ومن هنا يمكن أن أقول أن النفس البشرية لها كثير من الخبايا والأسرار ولانستطيع أن نضع لها قوانين ثابتة تسير وفقها في أي عملية نفسية.

إن هذه النظريات تمت الإشارة إليها لم تستطع أن ترضي أو تقنع بأدلتها الواهية واستنتاجاتها الخيالية، فالعقل لايقبل أي مسالة إذا لم تُشفَع بأدلة وبراهين ثابتة ومنطقية.

بين لغة الإنسان ولغة الحيوان

يقول داروين في كتابة فجر الإنسان: يكمن الفرق بين أصوات الحيوانات ولغة الإنسان في مقدار الدرجة فقط فهل هذا القول صحيح" (الكرمي، 2002، 10).

وقد رأى الفيلسوف الفرنسي رينه ديكارت أنه يمكن اعتبار اللغة الميزة الكاملة والحقيقية التي يمكن أن تفرق بين الحيوان والإنسان (زكريا، 1982، 25).

في الحقيقة معالجة هذا الموضوع يتطلب مدخلاً واسعاً وبرأيي المدخل الأيسر لمعالجة هذا الموضوع يكمن في أحد تعاريف اللغة وهو أن اللغة وسيلة اتصال، فإذا كانت اللغة هي وسيلة اتصال بين البشر فهل هذا يعني أنه لا يوجد وسيلة اتصال بين الحيوانات؟

دلت الدراسات الحديثة على أن بعض الحيوانات تملك نظاماً اتصالياً غاية في التعقيد إلا نه يحتلف كماً ونوعاً عن اللغة الإنسانية، فالحيوانات تصدر أصواتاً قد يكون لبعضها هدفاً في إيصال غاية معينة، وقد أثارت هذه الأصوات انتباه الألسنيين الذين أولة جل هتمامهم ملاحظة هذه الأصوات الحيوانية من دون أن يغفلوا في الواقع عن حقيقة موضوعية غير قابلة للشك وقائمة على الاعتقاد أن هذه الاصوات تختلف تماماً عن الأصوات اللغوية عند الإنسان وبالتالي لايمكن مقارنتها من واقع علمي باللغة الإنسانية (خرما، 1979، 144).

يحاول الحيوان إيصال نواياه وغاياته إلى الحيوانات الأخرى ويقوم بأدء بعض الأصوات أو الصرخات إلا أن محاولته هذه لاتتخطى كونها في أفضل الأحوال نتيجة طارئة لسلوكه. لكن السال الذي يطرح نفسه هنا، هل هناك فرق بين استعمال الإنسان للصوت وسيلة للتعبير اللغوي وبين استخدام باقي المخلوقاتله؟ لكي نجيب عن هذه الأسئلة يجب علينا أن نميز بين استعمالين مختلفين للتصويت كوسيلة لغوية، فهناك صوت يطلقه الإنسان كردة فعل مباشر لمؤثر ما كأن يطلق الصيحة "آه" أو "أخ" التي تدل دلالة مباشرة على الألم والتي تتشابه لحد كبير في المجتمعات اللغوية المختلفة، فالصيحة هذه إشارة مباشرة وبسيطة لأن العلاقة بينها وبين ما تدل عليه وهو الألم علاقة مباشرة واضحة كل الوضوح أما عندما تتحدث إلى صديقك فتشكو له من ألم في عضو من جسمك فإن كلمة ألم لا تدل دلالة مباشرة عل ما تشعر به بل هي رمز

صوتي اصطلح عليه في المجتمع العربي للدلالة على هذا النوع من الشعور، والرموز التي تدل على نفس المعنى في لغات المجتمعات الأخرى مختلفة تماماً من الناحية الصوتية.

لكن لأي نوع من الأصوات تنتمي أصوات الحيوانات والمخلوقات الأخرى، هل تنتمي لفصيلة الإشارة البسيطة المباشرة أم تنتمي لفصيلة الرمز الصوتي المركب؟ لقد كان معظم العلماء حتى وقت قريب يعتقدون أن تصويت الحيوانات من النوع البسيط المباشر ولكن الدراسات الحديثة دحضت هذا الاعتقاد، فقد وجد أن بعض لغات الحيوان والطيور تتألف من أصوات مفردة يزيد عدد بعضها عن تلك التي تستعملها بعض المجتمعات البشرية، فالمجتمعات البشرية تستخدم ما بين أحد عشر وسبعة وستين صوتاً مفرداً، ففي اللغة الإنكليزية مثلاً ما يقرب من 45 صوتاً وفي اللغة الإيطالية 27 صوتاً وفي اللغة العربية حوالي 40 صوتاً، أما لغات الحيوانات والطيور فإن في لغة الطيور المختلفة ما بين 12 و25 صوتاً، وفي لغة الحيوانات الثدية ما بين 7 و9 صوتاً، وفي لغة القرود المختلفة ما بين 10 و 27 صوتاً مفرداً (زكريا، 1983، 34)، فالفرق إذن في عدد الاصوات المفردة بين الإنسان والحيوان ليس شاسعاً لكن يبقى الشيء الأهم هو كيفية دلالة تلك الأصوات على المعاني، فهل هي دلالات مباشرة أم هي أشبه بالأصوات المفردة عند الإنسان اتي ليست لها دلالة مباشرة؟

ثم هل يمكن للحيوان أن يركب من تلك الأصوات رموزاً تدل على دلالة مباشرة على المعنى المقصود؟ والجواب هو أن أصوات الحيوان تدل في معظم الحالات دلالات مباشرة بسيطة معظمها تتعلق بالمشاعر أو بعضها يدل أيضاً كما هو الحال في لغة البشر على المحيط أو البيئة وما يتعلق منها بالحياة والمعيشة كالدلالة على اقتراب خطر أو توفر الغذاء وما إلى ذلك.

الخاتمة:

لا تزال الدراسات التي بحثت اللغة من منظور العلامة الإنسانية ضعيفة وحتى لا ترقى إلى أهمية موضوع اللغة الذي بدوره يستحق جهداً أكبر بكثير.

لا بد من تضافر الجهود بين اللغويين لمعرفة القوانين التي تنتظم وفقها اللغة.

من المعروف أن اللغة تحمل في طياتها عنصرين مهمين في العلامة اللسانية وهما الدال والمدلول، وهذا العنصران يشكلان حقيقة اللغة الإنسانية بمفهومها العام.

كانت جهود السانيين متقدمة في مجال دراسة اللغة عند الحيوان إن جاز لنا التعبير.

كانت دراسات اللغويين منصبة على لغة الإنسان أكثر من اللغة عند الحيوان.

العلماء الغربيون ازدادت أنشطتهم في دراسة أصوات الحيوانات وذلك نتيجة للتطور في أجهزة رصد الأصوات والإشارات.

من النتائج التي توصلت إليها والتي يمكن أن تكون مقترحاً هي أنه لابد من خلق جو بين بعض الحيوانات التي يمكن أن تستقبل اللغات مثل الإنسان وتتعلمها وبين الإنسان نفسه، أي نقيم فترة تعايش في نفس المكان لكي نعرف مستوى الاستقبال اللغوي عند هذه الحيوانات.

دراسة اللغة عند الحيوان تحتاج إلى أجهزة دقيقة في القياس والتميز، ولذلك لا بد من التفكير في إيجاد أجهزة تستطيع قياس الصوت عند الحيوان بكافة تفرعاته وأنواعه.

موضوع اللغة موضوع ليس بالسهل ولذلك يجب أن تضافر جهود كل من اللغويين واللسانيين وعلماء البيئة وحتى علماء الفيزياء.

المصادر والمراجع:

ابن جني (1956)، الخصائص، القاهرة.

ابن فارس، احمد (1977)، الصاحبي في فقه اللغة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

خرما، نايف (1979)، أضواء على الدراسات اللغوية االمعاصرة، عالم المعرفة.

زكريا، ميشال (1982)، الألسنية التوليدية والتحويلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

زكريا، ميشال (1983)، الألسنية علم اللغة الحديث، المؤسسة العامة للدراسات والنشر، بيروت.

سفر التكوين الأصحاح الثاني (1984)، المطبعة الأمريكانية، بيروت.

عبد التواب، رمضان (1985)، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

عبد التواب، رمضان (1985)، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

غازي، يوسف (1985)، مدخل إلى الألسنية، منشورات العالم العربي الجامعية، دمشق.

فندريس (1950)، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة.

الكرمي، حسن سعيد (2002)، اللغة نشأتها وتطورها، وزارة الثقافة، عمان.

الكرمي، حسن سعيد (2002)، اللغة نشأتها وتطورها، وزارة الثقافة، عمان.

مراد، وليد محمد ((1986)، المسار الجديد في علم اللغة العام، مطبعة الكواكب، دمشق.